مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الاقتصاد الإسلامي، م ١، ص ص ٨٥-١٠٩ (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)

معالجة الخليفة عمر بن الخطاب لمشكلة المجاعة في عام الرمادة

صلاح التيجاني حمودي
أستاذ مساعد - كلية الآداب
جامعة الملك عبد العزيز- جدة- المملكة العربية السعودية

المستخلص : يبين البحث كيف عالج الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣هـ) مشكلة المجاعة حين انحبس المطر عن جزيرة العرب عام ١٨هـ الذي سمي عام الرمادة. وزاد المشكلة تعقيدًا تزامن المجاعة مع طاعون عمواس الذي اجتاح شطرًا من بلاد الشام في عامي ١٧ و ١٨هـ.

وعلى الرغم من حداثة الدولة واتساعها الكبير حينئذٍ فإن عمر تصدى للمجاعة بقوة وحكمة وضرب أروع الأمثلة لما يجب أن يكون عليه الحاكم المسلم المسؤول عن رعيته في كل شبر من أرضها. فقد سعى لجلب الطعام من مصر والعراق، وأشرف بنفسه على توزيعه، وشارك الرعية مصابهم فمنع نفسه طيب الطعام أو الأكل في بيته. كما أخر جباية الزكاة ولم ينفذ حد السرقة عام المجاعة لشبهة الاضطرار، وتوجه مع المسلمين إلى الله بالدعاء.

وبعد انتهاء المجاعة أمر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه بحفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر لضمان سهولة إمداد الطعام من مصر إلى جزيرة العرب.

إن الظروف الاقتصادية السيئة التي تمر بها بعض دول العالم اليوم، والتي تعاني من الجوع بسبب الجفاف والتصحر، إن هذه الظروف، في حد ذاتها، ليست شيئًا جديدًا على البشرية، فالتاريخ يمتلئ بأخبار مثل هذه الكوارث. غير أن الشيء المهم هو كيفية معالجة هذه المسائل والقضاء على المجاعة حيث وجدت. وهذا ما دفعنا لبحث هذا الموضوع لدراسة حالة من حالات المجاعة التي ألمت بالدولة الإسلامية في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، لنرى ما اتخذه الخليفة عمر رضي الله عنه من خطوات للقضاء على هذه المجاعة، عسى أن ننتفع بذلك في حل مشكلاتنا المشابهة في وقتنا الحاضر وفي المستقبل.

أصل التسمية ووقت حدوث المجاعة

في أحد الأعوام أثناء خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣هـ)، تعرضت أجزاءٌ كثيرةٌ من بلاد العرب، وبصفةٍ خاصةٍ منطقة المدينة المنورة وما حولها، لجفافٍ شديدٍ سببه انحباس الأمطار، الأمر الذي جعل المؤرخين يسمون تلك السنة، التي أصاب الجوع فيها الناس، بعام الرمادة، وعلل ابن الجوزي ذلك الوصف بقوله: "إن الأرض كلها صارت سوداء فشُبِّهت بالرماد"(١).

أما الطبري فقد ذكر "أنها (أي الأرض) كانت تسفى(٢) إذا ريحت ترابًا كالرماد، فسمي ذلك العام عام الرمادة"، ثم أضاف الطبري قائلاً: "كانت الرمادة جوعًا أصاب الناس بالمدينة وما حولها فأهلكهم حتى جعلت الوحش تأوى إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها وإنه لمقفر"(٣). وفي كتابه "الطبقات الكبرى" يقول محمد بن سعد: "وفي هذه السنة (أي سنة ١٨هـ)، كان أول عام الرمادة، أصاب الناس محل وجدب ومجاعة تسعة أشهر"(٤). وفي مكان آخر من كتابه، ذكر ابن سعد أنه "لما صدر الناس عن الحج سنة ثماني عشرة أصاب الناس جهد شديد وأجدبت البلاد وهلكت الماشية وجاع الناس وهلكوا حتى كان الناس يرون يستفون الرمة(٥) ويحفرون نفق اليرابيع والجرذان يخرجون ما فيها"... و"سمي ذلك العام عام الرمادة، لأن الأرض كلها صارت سوداء فشبهت بالرماد، وكانت تسعة أشهر"(٦).

أما اليعقوبي فقد ذكر أنه "أصاب الناس جدب وقحط ومجاعة شديدة في عام الرمادة، وهي سنة ١٨هـ"(٧).

كذلك جاء في تاريخ خليفة أن "فيها (أي سنة ١٨هـ) عام الرمادة أصاب الناس مجاعة شديدة"(٨).

ونجد ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق أيضًا يؤرخ لعام الرمادة بسنة ١٨هـ(٩).

---

(١) انظر ابن الجوزي: "تاريخ عمر بن الخطاب" ص ٨٧؛ ويفسر ابن منظور (لسان العرب: الجزء ٣، ص ص ١٨٥-١٨٦) هذا المعنى بقوله إن "الرَّمدَ والرَّمادةَ الهلاك، وأرمدَ الرجل إرمادًا: افتقر، ويقال رَمَّدَه وأرْمَدَهُ إذا أهلكه وصيّره كالرَّماد، وعام الرمادة معروف سمي بذلك لأن الناس والأموال هلكوا فيه كثيرًا، وقيل هو لجدبٍ تتابع فصير الأرض والشجر مثل لون الرماد".

(٢) سَفَتِ الريحُ الترابَ تَسْفِيه سَفْيًا: ذَرَتْهُ، وقيل: حملته فهو سَفِيٌّ (عن ابن منظور: نفس المصدر، الجزء ١٤، ص ٣٨٩).

(٣) الطبري: "تاريخ الرسل والملوك" الجزء ٤، ص ص ٩٦-٩٨.

(٤) ابن سعد: "كتاب الطبقات" المجلد ٣، ص ٢٨٣.

(٥) الرِّمَّة: العظام البالية، والجمع رِمَمٌ ورمامٌ، والرَّميمُ: مثل الرِّمَّةِ. قال تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم﴾ سورة يس، الآية ٧٨. (عن: ابن منظور: نفس المصدر: الجزء ١٢، ص ٢٥٢).

(٦) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد٣، ص ٣١٠.

(٧) اليعقوبي: "تاريخ اليعقوبي"، المجلد٢، ص ١٥٠.

(٨) خليفة بن خياط: "تاريخ خليفة"، ص ١٣٨.

(٩) ابن عساكر: "تاريخ مدينة دمشق"، المجلدة الأولى، ص ٥٥٥.

وهكذا، نجد أن المؤرخين لا يختلفون حول تاريخ عام الرمادة، فكل من ذكرنا متفقون على أنها كانت في سنة ١٨هـ، مع العلم بأنهم يختلفون حول تاريخ الكثير من الأحداث التي وقعت في نفس الفترة، مثلاً تاريخ فتح مصر، وسنعود للحديث عنه لارتباطه بموضوعنا. ولعل الشدة التي أصابت المسلمين في هذا العام جعلت من الصعب نسيان أحداثها أو تاريخ وقوعها.

أسباب المجاعة وما ارتبط بها من أحداث

ويفهم من أقوال المؤرخين أن **السبب الرئيس** هو شح الأمطار وانحباسها في ذلك العام. غير أنه ليس واضحًا إن كان هذا العام قد سبقته سنوات جفاف أخرى أم لا. وبما أن أحدًا من المؤرخين لم يذكر ذلك، بل إن بعضهم حدد فترة الجفاف بتسعة أشهر، فلابد إذن من أن تكون هنالك أسباب أخرى أدت إلى هذا النقص الخطير في المواد الغذائية. ولعل على رأس هذه الأسباب انشغال المسلمين بحركة الجهاد والفتوحات الإسلامية في العراق والشام ومصر، الأمر الذي تسبب -لاشك- في قلة الاهتمام بالزراعة ومصادر الماء والرعي. أضف إلى ذلك أن الخليفة عمر كان قد أقر اليهود في بلاد العرب "صدرًا من إمارته" ثم أمرهم بالجلاء عن خيبر(١٠). وكانت منطقة خيبر تضم أراضي زراعية خصبة وواسعة تنتج الكثير من المحاصيل الزراعية، كالقمح والتمر والشعير، التي تعتمد عليها أجزاء كثيرة من بلاد الحجاز. ومنذ أن فتح الرسول ﷺ خيبر في سنة ٧هـ، أبقى سكانها من اليهود على ما هم عليه ليقوموا بزراعة الأرض في مقابل أن يحصلوا على نصف المحصول ويحصل المسلمون على النصف الآخر(١١). وكان السبب الذي دفع الرسول ﷺ إلى هذا الإجراء هو أن المسلمين كانوا مشغولين بالجهاد ونشر الدعوة الإسلامية، و لم يكن لديهم الوقت أو العدد الكافي من العمال الذين يقومون بزراعة هذه الأرض،كما أنهم كانوا في حاجة إلى هذه الإمدادات الغذائية. ومن هنا، فلا يستبعد أن يكون إخراج الخليفة عمر بن الخطاب لليهود من خيبر(١٢) قد تسبب في نقص شديد من إنتاج خيبر وما جاورها من مناطق زراعية، خاصة إذا تذكرنا أن المسلمين كانوا خلال هذه الفترة أكثر انشغالاً بالجهاد وحركة الفتح الإسلامي من ذي قبل.

---

(١٠) ابن هشام: "السيرة النبوية" المجلد ٢، ص ٣٥٦؛ أبو يوسف "كتاب الخراج"، ص ص ١١٤-١١٥؛ ابن حنبل: "المسند"، المجلد الأول، ص ١٩٦؛ البخاري: "الصحيح"، كتاب الإجارة، المجلد ٣، ص ١١٠؛ أبو داود: "سنن، كتاب الإمارة"، المجلد ٢، ص ٢١٦.

(١١) البخاري: المصدر نفسه: كتاب الحرث، المجلد٣، ص ١٣١، وكتاب الشركة، المجلد٣، ص ١٧٤، وكتاب الشروط ٣، ص ص ٢٣٦، ٢٣٨؛ أبو داود: المصدر نفسه، كتاب الإمارة، المجلد٢، ج٣، ص ٢١٥؛ مالك: "الموطأ"، كتاب المساقاة، ج٣، ص ٧٠٣؛ ابن ماجة: "السنن" كتاب الزكاة، المجلد١، ص ٥٨٢؛ يحي ابن آدم: الخراج، ص ٢١.

(١٢) أمر الخليفة عمر بجلاء اليهود عن خيبر بعد نقضهم للعهد وتعرضهم للمسلمين بالأذى، وقد تأكد له أيضًا أن هناك حديثًا روى عن الرسول ﷺ جاء فيه أنه لا يجتمع في جزيرة العرب دينان (مالك بن أنس: الموطأ، ص ٦٤٣؛ أبو داود: السنن، المجلد٢، ج٣، ص ١٥٤؛ ابن هشام: المصدر نفسه، المجلد٢، ص ص ٣٥٦-٣٥٧)؛ لم يرد تاريخ محدد لخروجهم، غير أن ابن هشام ذكر أن عمر أبقاهم "صدرًا من إمارتهم" ثم أمر بإخراجهم.

هنالك **سبب آخر** زاد من خطورة الموقف، وهو أن بلاد الشام، التي فتحها المسلمون لتوهم، اجتاحها في عام ١٨هـ الوباء المعروف بطاعون عمواس[١٣] الذي تزامن مع حدوث المجاعة التي حدثت في بلاد العرب في نهاية عام ١٧هـ وأوائل عام ١٨هـ، وفيما يلي نذكر بعض روايات المؤرخين حول هذا الموضوع:

فقد ذكر ابن سعد أن الطاعون وقع سنة ١٨هـ، وفي هذه السنة (وفق روايته) كان أول عام الرمادة[١٤]. وفي رواية أخرى أورد ابن سعد أن الخليفة عمر "خرج في جمادى الأولى سنة ١٧هـ يريد الشام فبلغ سرغ[١٥] فبلغه أن الطاعون قد اشتعل بالشام فرجع من سرغ"[١٦].

أما الطبري فقد ذكر في إحدى رواياته أن الطاعون وقع سنة ١٧هـ[١٧]. وفي رواية أخرى أن الطاعون كان في سنة ١٨هـ، وهي نفس السنة التي حدثت فيها مجاعة عام الرمادة[١٨].

أما ابن عساكر فقد جعل تاريخ حدوث الطاعون ومجاعة الرمادة واحدًا وهو العام ١٨هـ، غير أنه ربطه بقدوم الخليفة عمر إلى الجابية في هذا العام[١٩].

وفي تاريخه ذكر خليفة بن خياط أن عمر خرج إلى سرغ في سنة ١٧هـ ورجع منها بسبب الطاعون[٢٠]، ثم نجده في مكان آخر يتفق مع الرواية التي تقول إن الطاعون كان في سنة ١٨هـ[٢١].

---

(١٣) يقول ياقوت الحموي: (معجم البلدان: المجلد الرابع، ص ص ١٥٧-١٥٨) كورة عمواس هي ضيعة جليلة على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس، ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم فشا في أرض الشام فمات فيه خلق كثير لا يحصى من الصحابة، وقيل مات فيه خمسة وعشرون ألفًا من المسلمين. انظر كذلك: البكري: "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع"، المجلد ٣، ص ٩٧١، الذي أورد رواية عن الأصمعي تقول "إنه إنما سمي الطاعون بذلك لقولهم عم وآسى" ولكن الرواية التي تقول بنسبته إلى بلدة عمواس تبدو أكثر قبولاً.

(١٤) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٢٨٣.

(١٥) سرغ، كما جاء في معجم البلدان لياقوت (المجلد ٣، ص ص ٢١١-٢١٢) "هو أول الحجاز وآخر الشام... وهناك لقي عمر ابن الخطاب أمراء الأجناد؛ بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة... وهناك لقي عمر بن الخطاب من أخبره بطاعون الشام فرجع إلى المدينة".

(١٦) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٢٨٣.

(١٧) الطبري: المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٥٦، ٥٧، ٥٨.

(١٨) الطبري: المصدر نفسه، ص ٦٠، ٩٦؛ انظر كذلك اليعقوبي: المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٥٠.

(١٩) ابن عساكر: المجلد الأول، ص ص ٥٥٤-٥٥٧.

(٢٠) خليفة: المصدر نفسه، ص ١٣٥.

(٢١) المصدر السابق، ص ١٣٨.

ويقول اليعقوبي في تاريخه: "ثم خرج (عمر) يريد الشام حتى بلغ إلى سرغ فبلغه أن الطاعون قد كثر فرجع" وقد ذكر اليعقوبي هذا في أحداث سنة ١٧هـ[٢٢].

والحقيقة أن تحديد تاريخ حدوث المجاعة وتاريخ وقوع الطاعون[٢٣] مضافًا إليهما تحديد تاريخ فتح مصر، لارتباطه بالحدثين، يساعدنا على الإجابة عن **سؤالين مهمين، الأول منهما** هو: إذا كان وقوع الطاعون قد تزامن مع حدوث المجاعة في بلاد العرب، فهل كانت بلاد الشام في حالة تسمح لها بإرسال إمدادات من الطعام إلى المدينة، كما تحدثنا بعض المصادر؟[٢٤].

أما **السؤال الثاني** الذي يطرح نفسه فيتعلق بفتح مصر، فإذا كانت المصادر تحدثنا أن مصر فتحت بعد سنة ١٩هـ[٢٥]، فهل من المعقول أن تكون مصر قد ساهمت في حل مشكلة المجاعة التي حدثت سنة ١٨هـ، وذلك بإرسال كميات من الطعام، وهي لم تفتح بعد؟ إن وصول إمدادات من الطعام من العراق والشام ومصر إلى المدينة لإغاثة أهلها ومن حولها من القبائل من شبح المجاعة حقيقة ثابتة لا نستطيع إنكارها. ولكن قبل أن نتحدث عن هذه المسألة ونحدد الوقت الذي جاءت فيه هذه الإمدادات الغذائية، علينا أن نجيب عن السؤالين السابقين، وذلك من خلال إثبات تاريخ كل حدث من هذه الأحداث بدقة.

فإذا عدنا إلى السؤال الأول، المتعلق بأحوال الشام خلال هذه الفترة، نجد أن هناك بعض التضارب في التواريخ التي أوردتها روايات المؤرخين[٢٦] عن حدوث الطاعون وارتباطه بعام الرمادة. فقد اتفقت روايات بعض المؤرخين على أن الطاعون وقع ببلاد الشام في سنة ١٨هـ. غير أن هناك رواية أخرى تقول إن الطاعون بدأ سنة ١٧هـ، فقد ذكر ابن سعد[٢٧] أن الخليفة عمر خرج في

---

(٢٢) اليعقوبي: المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٤٩.

(٢٣) ذكر Dols في كتابه: "*The Black Death in the Middle East*"، (ص ٢١) روايتين مختلفتين عن تاريخ حدوث الطاعون، وهما أنه إما أن يكون قد وقع سنة ١٧هـ وإما سنة ١٨هـ؛ وسنعود فيما بعد لمناقشة هذا الموضوع.

(٢٤) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد٣، ص ص ٣١١–٣١٥؛ الطبري: المصدر نفسه، المجلد٤، ص ص ٩٩–١٠٠.

(٢٥) البلاذري: "فتوح البلدان"، القسم ١، ص ٢٤٩؛ ابن عبد الحكم: "فتوح مصر والمغرب" ص ٧٦؛ الطبري: المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ص ١٠٤–١٠٥؛ اليعقوبي: المصدر نفسه، المجلد٢، ص ١٥٤. وفي رواية أخرى للطبري (المصدر نفسه، ص ١١١) أن مصر افتتحت في ربيع الأول سنة ١٦هـ.

(٢٦) البلاذري: المصدر نفسه، ص ١٦٥؛ ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٢٨٣؛ الطبري: المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٦٠، ٩٦.

(٢٧) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٢٨٣.

جمادى الأولى سنة ١٧هـ يريد الشام فبلغ سرغ.. الخ، أما الطبري[٢٨] فقد ذكر أن الطاعون وقع بالشام ومصر والعراق واستقر بالشام ومات فيه الناس الذين هم في كل الأمصار في المحرم وصفر سنة ١٧هـ، ثم ارتفع عن الأمصار ما عدا أواسط الشام، فلما خرج عمر يريدها سمع به فرجع.

من هنا، يتضح لنا أن الطاعون اشتدت ضراوته في بلاد الشام حوالي منتصف عام ١٧هـ، أي قبل وقوع مجاعة عام الرمادة بفترة قصيرة واستمر الطاعون حتى سنة ١٨هـ، وراح ضحيته عدد كبير من الناس بلغ عددهم خمسة وعشرين ألفًا سوى من لم يحضر منهم وكان على رأس هؤلاء أبو عبيدة بن الجراح[٢٩] عامل عمر على بلاد الشام. لذلك فإن ما ذكره الطبري[٣٠] من أن عمر ابن الخطاب عندما كتب إلى عماله في عام الرمادة أن "أغيثوا أهل المدينة ومن حولها، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح في أربعة آلاف راحلة من الطعام فولاه قسمتها فيمن حول المدينة". إن هذه الرواية ليست صحيحة، فبالإضافة إلى أن بلاد الشام كانت تعاني من وطأة الوباء، بما لا يسمح لها بتقديم هذا الطعام، فإن أبا عبيدة نفسه،كما رأينا، توفي سنة ١٨هـ أي عند اشتداد الطاعون، إذن فلابد أن تكون إمدادات الطعام من الشام قد جاءت في وقت أعقب هذا التاريخ. ولعل رواية ابن سعد في هذا المجال أقرب إلى الصواب، فقد أنكر أن يكون الذي بعث بالطعام من الشام يزيد بن أبي سفيان الذي كان مع أبي عبيدة، وقال إنما هو معاوية بن أبي سفيان لأن يزيد كان قد مات يومئذ[٣١]، أي في نفس العام الذي توفي فيه أبو عبيدة بن الجراح.

أما السؤال الثاني التي طرحناه فهو عن تاريخ فتح مصر، ويهمنا البحث عن ذلك ومحاولة تحديده بدقة لأنه مرتبط بعام الرمادة أيضًا كما ذكرنا. فهناك العديد من الأقوال المتضاربة حول تاريخ فتح مصر[٣٢] فالواقدي[٣٣] يذكر أنه "لما فتح عمرو بن العاص قيسارية[٣٤] صلحًا كان لعمر

(٢٨) الطبري: المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٥٨.

(٢٩) توفي أبو عبيدة سنة ١٨هـ نتيجة الطاعون (ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٤١٤؛ اليعقوبي: نفس المصدر، المجلد ٢، ص ١٥٠.

(٣٠) الطبري: المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ص ٩٩-١٠٠.

(٣١) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣١١، ٣١٥.

(٣٢) ناقش (Butler) في كتابه "*The Arab Conquest of Egypt*"، (ص ص ٥٢٦-٥٤٦) موضوع تاريخ فتح مصر وذكر روايات المؤرخين التي تظهر بعض الاختلافات والتناقضات فيما يختص ببداية الفتح وتاريخه، فبعض الروايات تجعل بداية الفتح في سنة ١٩هـ وبعضها في سنة ٢٠هـ، في حين نجد هذا التاريخ يذكر أيضًا كتاريخ لسقوط الإسكندرية في أيدي المسلمين، وبالطبع فإنه من غير المعقول وضع تاريخ بداية الفتح في نفس العام مع سقوط الإسكندرية، وقد ناقشنا هذا الموضوع في مكان آخر من هذا البحث (انظر الصفحات السابقة) وأوردنا روايات لم يتعرض لها (Butler)، وهي ذوات أهمية كبرى في تحديد تاريخ بداية الفتح.

(ابن الخطاب) في الخلافة أربعة أعوام وستة أشهر... وأنفذ أبو عبيدة (أمير الشام) لعمرو بن العاص أن يسير إلى مصر بأمر عمر بن الخطاب، وقد جاء في كتاب عمر لأبي عبيدة قوله: "و إذا قرأت كتابي هذا فأمر عمرو بن العاص أن يتوجه إلى مصر بعسكره".

وعلى هذا، يكون تاريخ خروج عمرو إلى مصر سنة ١٨ وفق رواية الواقدي لأن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه تولى الخلافة في نهاية جمادى الآخرة سنة ١٣هـ(٣٥)، فإذا أضفنا إلى هذا التاريخ أربع السنوات وستة الأشهر التي ذكرها الواقدي، وصلت بنا إلى عام ١٨هـ.

غير أن الواقدي أورد خبرًا آخر مفاده أن عمرو بن العاص هو الذي فتح قيسارية، إذ "دخلها يوم الأربعاء في العشر الأول من رجب الفرد سنة ١٩هـ(٣٦)، وهذا بالطبع يتناقض مع التاريخ الذي أعطاه (أي الواقدي) لفتح مصر آنفًا وهو عام ١٨هـ، اللهم إلا إذا كانت قيسارية قد فتحت على يد قائد آخر(٣٧).

أما البلاذري فقد ذكر أن مسير عمرو بن العاص إلى مصر كان سنة ١٩هـ(٣٨). كذلك فإن ابن عبد الحكم قد ربط مسيرة عمرو بن العاص لفتح مصر بتاريخ قدوم الخليفة عمر بن الخطاب إلى الشام فقال: إنه لما كانت سنة ثماني عشرة وقدم عمر الجابية خلا به عمرو بن العاص فاستأذنه في المسير إلى مصر(٣٩).

---

(٣٣) الواقدي: "فتوح الشام" ص ص ٢٣-٢٤. على الرغم من الشك الذي يحوم حول نسبة هذا الكتاب إلى الواقدي، إلا أن أهمية المعلومات التي وردت فيه تحتم علينا عدم إغفالها، وقد لا يكون الشك في نسبة كتاب ما لأحد المؤرخين بالضرورة نافيًا للحقائق التاريخية (حول كتاب الواقدي والشك في صحة نسبته إليه، انظر: *Encyclopedia of Islam, Vol. IV*، ص ١١٠٤.

(٣٤) قيسارية: "بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين... وكانت قديمًا من أعيان أمهات المدن واسعة الرقعة طيبة البقعة كثيرة الخير والأهل" (عن ياقوت الحموي: المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٤٢١).

(٣٥) انظر ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٢٧٤.

(٣٦) الواقدي: المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٣٧) كان عمرو بن العاص، وفق رواية البلاذري (المصدر نفسه، ص ص ١٦٦-١٦٧) أول من فرض الحصار على قيسارية سنة ١٣هـ، حيث ظل محاصرًا لها حتى جاءه الأمر بالتوجه إلى مصر فترك أمرها لابنه من بعده؛ ثم جاءها معاوية بن أبي سفيان فأكمل فتحها عام ١٩هـ بعد أن حوصرت سبع سنوات. كذلك ذكر اليعقوبي (المصدر نفسه، المجلد٢، ص ١٥٢) أن قيسارية فتحت على يد معاوية بن أبي سفيان سنة ١٨هـ.

(٣٨) البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

(٣٩) ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٧٦.

ومن جهة أخرى، نجد أن ابن سعد قد أرخ لقدوم الخليفة عمر إلى الجابية بصفر سنة ١٦هـ[٤٠] ويتفق هذا التاريخ مع إحدى روايات الطبري في أن مصر افتتحت في ربيع الأول سنة ١٦هـ[٤١]، أضف إلى ذلك أن الطبري ذكر أن عمر بن الخطاب أتى الشام أربع مرات، مرتين سنة ست عشرة ومرتين في سنة سبع عشرة، لم يدخلها في الأولى من الآخرتين[٤٢] (أي في زيارته الأولى في سنة ١٧)، في الغالب بسبب الطاعون. فإذا كانت زيارة الخليفة عمر الأولى للشام قد تمت في صفر سنة ١٦هـ، فإن خروج عمرو بن العاص إلى مصر في ربيع الأول من نفس العام يصبح معقولاً ومقبولاً. ولكن الطبري لم يكتف بتلك الرواية، بل أورد رواية أخرى ذكر فيها أن مصر فتحت سنة ٢٠هـ أو سنة ٢١هـ ، أو سنة ٢٢هـ[٤٣].

وكما ذكرت فإننا نميل إلى قبول الرواية التي تقول بخروج عمرو بن العاص لفتح مصر في سنة ١٦هـ، ومما يرجح هذا الاعتقاد أن أول زيارة قام بها الخليفة عمر بن الخطاب للشام كانت من أجل أن يتم فتح بيت المقدس والصلح لأهلها مع الخليفة بنفسه كما اشترط أهلها ذلك[٤٤]. ويكاد يتفق على هذا جميع المؤرخين[٤٥]، أي إن عمر قدم إلى الجابية في سنة ١٦هـ من أجل مصالحة أهل بيت المقدس. وانتهز عمرو بن العاص، قائد الجيش الذي كان يحاصر بيت المقدس، الفرصة وطلب من الخليفة عمر الإذن في فتح مصر[٤٦]. وبدون أن ندخل في تفاصيل الأسباب التي دفعت المسلمين لفتح مصر في هذا الوقت، فإن القول بأن بداية هذا الفتح كانت في سنة ١٦هـ تبدو معقولة ومقبولة. ولاشك أن فتح مصر استغرق عدة سنوات، وبخاصة سقوط مدينة الإسكندرية، الذي قيل إنه حدث في سنة ٢٠هـ[٤٧]، ونستخلص من ذلك أن الفتح الذي بدأ سنة ١٦هـ لابد أن يكون قد استغرق أكثر من عامين قبل أن تستقر أقدام المسلمين في مصر، بغض

(٤٠) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٢٨٣.
(٤١) الطبري: نفس المصدر، المجلد ٤، ص ١١١.
(٤٢) المصدر السابق، ص ٥٩.
(٤٣) المصدر السابق، ص ص ١٠٤-١٠٥. الملاحظ أن الطبري يعتمد على أسلوب إيراد كل الروايات المختلفة حول الموضوع، وعلينا أن نختار الرواية المناسبة وفق ما تقتضيه قرائن الأحوال.
(٤٤) خليفة: المصدر نفسه، ص ١٣٥.
(٤٥) المصدر السابق؛ ابن عساكر: المصدر نفسه، المجلد الأول، ص ٥٥٣؛ اليعقوبي: المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٤٧؛ البلاذري: المصدر نفسه، القسم الأول، ص ١٦٤.
(٤٦) اليعقوبي: المصدر نفسه، ص ص ١٤٧-١٤٨.
(٤٧) المصدر السابق، ص ١٥٤. أما خليفة (المصدر نفسه، ص ١٤٢) فقد جعل بداية فتح مصر في سنة ٢٠هـ، وهذا في رأي تاريخ متأخر جدًا. انظر أيضًا ابن الحكم (المصدر نفسه، ص ١١٧).

النظر عن استيلائهم على مدينة الإسكندرية. ومعنى ذلك أن مصر لم تكن وقت حدوث المجاعة، مابين عام ١٧هـ وعام ١٨هـ، في حالة تسمح للمسلمين بإرسال إمدادات من الطعام.

ولعله من الطريف أن نضيف هنا ما رواه ابن عبد الحكم[٤٨] من أنه لما أبطأ على المسلمين فتح الإسكندرية كتب الخليفة عمر إلى عمرو بن العاص قائلاً: "... فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ... الخ ".

فهذا من جهة يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الفتح استغرق أكثر من عامين، كما أن تسميته للإسكندرية باسم مصر، لأنها كانت عاصمة البلاد، لابد أن يكون قد أدى إلى ذلك التناقض عند المؤرخين مابين تاريخ بداية فتح مصر كلها وتاريخ فتح الإسكندرية.

إذن، فإن هذه الإمدادات الغذائية التي أرسلها عمرو بن العاص من مصر لابد أن تكون قد جاءت بعد سنة ١٨هـ، وهو عام الرمادة، ويؤيد قولنا هذا ما ذكره البلاذري من أن عمر ابن الخطاب كتب في سنة إحدى وعشرين إلى عمرو بن العاص يعلمه ما فيه أهل المدينة من الجهد ويأمره أن يحمل ما يفيض من الطعام في الخراج إلى المدينة في البحر، فكان ذلك يحمل ويحمل معه الزيت، فإذا ورد الجار تولى قبضه سعد الجار[٤٩] ثم جعل في دار بالمدينة وقسم بين الناس بمكيال، فانقطع ذلك في الفتنة الأولى، ثم حمل أيام معاوية ويزيد، ثم انقطع إلى زمن عبد الملك بن مروان، ثم لم يزل يحمل إلى خلافة أبي جعفر (المنصور) أو قبيلها[٥٠].

ولعل آثار المجاعة التي حدثت في سنة ١٨هـ استمرت بعض الوقت، الأمر الذي جعل الخليفة عمر يحتاط للمستقبل، فأمر عامله على مصر، بعد أن استقرت أقدام المسلمين هناك، أن يعمل على إرسال إمدادات الطعام إلى المدينة بانتظام، فوضع بذلك سياسة ثابتة استمرت حتى العصر العباسي، وسنعود لهذه النقطة مرة أخرى.

---

(٤٨) ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ص ١١٥-١١٧.

(٤٩) الجار: مدينة على ساحل بحر القلزم (أي البحر الأحمر)، بينها وبين المدينة يوم وليلة... وهي فرضة (أي ميناء) ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند (عن ياقوت الحموي: المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ص ٩٢-٩٣). وسعد الجار هو سعد بن نوفل مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان استعمله على الجار.

(٥٠) البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٥٣؛ انظر كذلك اليعقوبي، (المصدر نفسه، ص ص ١٥٤-١٥٥) الذي ذكر تفاصيل أكثر من عدد السفن، وهو عشرون سفينة، وكمية الطعام الذي كانت تحمله.

كيف واجه الخليفة عمر مشكلة المجاعة؟

والآن، بعد أن بحثنا في أسباب المجاعة وتاريخها وما ارتبط بها من أحداث نعود لنتابع جهود الخليفة عمر بن الخطاب لحل مشكلة المجاعة والخروج بالأمة الإسلامية من هذه الشدة. وبما أننا قد توصلنا إلى نتيجة مهمة وهي أنه عندما بدأت المجاعة لم تكن مصر قد اكتمل فتحها بعد، كما أن بلاد الشام كانت تعاني من انتشار الطاعون فيها، فإن التفكير يتجه بلا شك نحو العراق بأراضيه الخصبة، وبخاصة سواد الكوفة التي أسسها المسلمون في بداية خلافة عمر بن الخطاب[٥١]. وقد ذكر لنا ابن سعد أن والي الكوفة بعث إلى المدينة بألفي بعير تحمل الدقيق[٥٢].

ويبدو أن وصول هذه الإمدادات من الطعام إلى المدينة دفع الكثير من القبائل، التي كانت تعاني من وطأة المجاعة، أن تتجه نحو المدينة، فقد جاء في كتاب الطبقات لابن سعد[٥٣] أيضًا أنه "لما كان عام الرمادة تجلبت العرب من كل ناحية فقدموا المدينة، فكان عمر بن الخطاب قد أمر رجالاً يقومون عليهم ويقسمون عليهم أطعمتهم وإدامهم، فكان يزيد بن أخت النمر، وكان المسور ابن مخرمة وكان عبد الرحمن بن عبد القاري وكان عبد الله بن عتبة بن مسعود، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فيخبرونه بكل ما كانوا فيه، وكان كل رجل منهم على ناحية من المدينة وكان الأعراب حلولاً فيما بين رأس الثنية إلى راتج إلى بني حارثة إلى بني عبد الأشهل إلى البقيع إلى بني قريظة[٥٤] ومنهم طائفة بناحية بني سلمة هم محدقون بالمدينة". ويمضي الراوي قائلاً: "فسمعت عمر يقول ليلة وقد تعشى الناس عنده: أحصوا من تعشى عندنا فأحصوهم من القابلة

(٥١) هناك أيضًا عدة روايات مختلفة حول تاريخ تأسيس مدينة الكوفة، فالطبري (المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٥٧٩) يقول إن تأسيسها كان سنة ١٤هـ بعد معركة القادسية، أو (المصدر نفسه، ص ٥٩٨) سنة ١٥هـ. وأرخ لها خليفة (المصدر نفسه، ص ١٣٨) بسنة ١٧هـ. أما اليعقوبي (المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٥٠) فقد أورد أيضًا روايتين الأولى إنه في سنة ١٧هـ نزل المسلمون الكوفة واختطوا بها الخطط وبنوا المنازل، والثانية تجعل ذلك في أول سنة ١٨هـ. كذلك نجد عند ياقوت (المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٤٩١) ثلاثة تواريخ مختلفة، هي سنة ١٧هـ و ١٨هـ و ١٩هـ.

(٥٢) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣١٥.

(٥٣) المصدر السابق، ص ص ٣١٦-٣١٧.

(٥٤) لا شك أن ابن سعد يقصد بذلك المنطقة التي كان يسكنها يهود بني قريظة فيما مضى، لأن هؤلاء لم يعد لهم وجود بالمدينة، فقد تخلصت الأمة الإسلامية منهم سنة ٥هـ بسبب خيانتهم لها في غزوة الأحزاب. أما رأس الثنية ففي الغالب المقصود بها ثنية الوداع، وهي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة (ياقوت: المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ٨٦). أما راتج فهو أطم من آطام اليهود بالمدينة وتسمى الناحية به (ياقوت: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ١٢)؛ والبقيع في اللغة الموضع الذي فيه أروم الشجر من ضروب شتى، ولعل المقصود هنا بقيع الغرقد، وهي مقبرة أهل المدينة (انظر ياقوت: المصدر نفسه، المجلد الأول، ص ٤٧٣).

فوجدوهم سبعة آلاف رجل، وقال: أحصوا العيالات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان، فأحصوا فوجدوهم أربعين ألفًا. ثم مكثنا ليالي فزاد الناس فأمر بهم فأحصوا فوجدوا من تعشى عنده عشرة آلاف والآخرين خمسين ألفًا ...".

من هذا، يتضح لنا أن الخليفة عمر أصبح يواجه –فضلاً عن الجفاف الذي أصاب بلاد العرب– مشكلة هذه الأعداد الكبيرة التي بدأت تفد إلى المدينة وتستقر حولها هربًا من المجاعة. و لم يكتف الخليفة عمر فقط بتكليف من يقوم بالإشراف على هذه الجموع لضمان وصول الطعام إليهم، بل كان يشرف على ذلك بنفسه، فقد ذكر مرة أنه كان يحمل الطعام على ظهره يصحبه مولاه أسلم حتى جاء جماعة من بني محارب وجدهم في جهد شديد بسبب الجوع فطرح عمر رداءه ثم أتزر فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا، وأرسل أسلم إلى المدينة فجاءه بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ثم كساهم وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك[٥٥].

وقد أورد ابن سعد رواية عن أسلم، مولى عمر بن الخطاب، جاء فيها: أنه "كان وقع فيهم (أي الذين أنزلهم عمر حول المدينة) الموت فأراه مات ثلثاهم وبقى ثلث". ولكن لا يخفي ما في هذا القول من المبالغة، فلفظة "فأراه" نفسها تنم عن عدم تأكده مما قال، ولعل الذي دفعه إلى ذلك ما رآه من كثرة من صلى عليهم عمر في وقت واحد، فقد ذكر أنه صلى مرة على عشرة جميعًا[٥٦].

وعلى الرغم من أن الخليفة عمر أنزل هذه الجموع حول المدينة إلا أنه كان على استعداد، إذا ساءت الأمور أكثر، أن يجعل أهالي المدينة يدخلونهم عليهم ويشاركونهم طعامهم، فقد روي أنه قال: "لو لم أجد للناس من المال ما يسعهم إلا أن أدخل على كل أهل بيت عدتهم فيقاسمونهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بحيا فعلت، فإنهم لن يهلكوا عن أنصاف بطونهم"[٥٧].

سلوك عمر الشخصي أثناء المجاعة

كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه القدوة والمثل للمسلمين في مشاركة المتضررين بسبب المجاعة طعامهم، فقد روى أنه أتى بخبز مقتوت[٥٨] بسمن عام الرمادة، فدعا رجلاً بدويًا

(٥٥) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣١٤.

(٥٦) المصدر السابق، المجلد ٣، ص ٣١٧.

(٥٧) المصدر السابق، ص ٣١٦؛ ابن الجوزي: المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٥٨) خبز مقتوت بسمن: المقصود بذلك في الغالب المخلوط بسمن طيب الرائحة، (انظر: ابن منظور: المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ٧١).

فجعل يأكل معه، فجعل البدوي يتبع باللقمة الودك في جانب الصحفة، فقال له عمر: كأنك مقفر من الودك، فقال: أجل ما أكلت سمنًا ولا زيتًا ولا رأيت أكلاً له منذ كذا وكذا إلى اليوم، فحلف عمر لا يذوق لحمًا ولا سمنًا حتى يحيا الناس أول ما أحيوا[٥٩].

كذلك، فإن عمر لم يأكل طيلة فترة المجاعة في بيت أحد من ولده ولا بيت أحد من نسائه ذواقًا إلا ما يتعشى مع الناس حتى أحيا الله الناس أول ما أحيوا[٦٠]. وكان عمر يقول: "كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما مسهم"[٦١]. ولذلك، نجد الخليفة عمر رضي الله عنه قد حرم على نفسه كل طعام لا يتيسر لعامة الناس، بل إنه كان لا يأكل إلا ما يقيم أوده من أخشن الأطعمة، فنجده حرم على نفسه أكل اللحم والسمن واكتفى بالخبز يثرد له بالزيت حتى أثر ذلك على صحته، فأصبح بطنه يتقرقر[٦٢] من كثرة أكل الزيت، وكان عندما يحدث ذلك ينقر بطنه بإصبعه ويخاطبه قائلا: "تقرقر تقرقرك، إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس"[٦٣] وكان من جراء ذلك أن تغير لون عمر من كثر أكل الزيت وإجاعة نفسه فاسود لونه حتى أصبح البعض يقولون: لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت همًا بأمر المسلمين[٦٤].

ويروي أيضًا أنهم نحروا يومًا من الأيام جزورًا فأطعمها الناس وغرفوا له طيبها، فأتي به فإذا فدر من سنام ومن كبد[٦٥]، فقال: أنى هذا؟ فقيل له إنه من الجزور التي نحرت اليوم، فقال: بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها، وأمر بالجفنة أن ترفع وطلب طعامًا غير هذا، فأتى بخبز وزيت، فجعل يكسر بيده ويثرد ذلك الخبز ثم قال: ويحك يا يرفأ احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثمغ[٦٦] فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام وأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم[٦٧].

---

(٥٩) انظر ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣١٣.
(٦٠) المصدر السابق، ص ٣١٧.
(٦١) الطبري: المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٩٨.
(٦٢) قرقر بطنه: صوت، أي أحدث صوتًا (راجع ابن منظور: المصدر نفسه، المجلد ٥، ص ٩٠).
(٦٣) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣١٣؛ ابن الجوزي: المصدر نفسه، ص ١٦١.
(٦٤) ابن سعد: المصدر السابق، المجلد ٣، ص ص ٣١٤-١٥، ٣٢٤؛ ابن الجوزي: المصدر السابق، ص ص ٨٧-٨٨.
(٦٥) فدر اللحم يعني برد وهو مطبوخ، والفدرة القطعة من اللحم المطبوخ الباردة وجمعها فدرٌ (انظر: ابن منظور: المصدر نفسه، المجلد ٥، ص ٥٠؛ الزبيدي: تاج العروس، المجلد٣، ص ص ٤٦٦-٦٧.
(٦٦) ثَمْغٌ: مال بالمدينة لعمر رضي الله عنه (الفيروز أبادي: القاموس، الجزء ٣، ص ١٠٤؛ ياقوت: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ص ٨٤-٨٥.
(٦٧) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣١٢.

و لم يكتف الخليفة عمر بتحريم الطيب من الطعام على نفسه فقط بل إنه أمضى ذلك أيضًا على جميع أفراد أسرته، لكي يحسوا بما حل بالمسلمين. ويروى في هذا أن عمر بن الخطاب نظر عام الرمادة إلى بطيخة في يد بعض ولده فقال: بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين، تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى؟ فخرج الصبي هاربًا وبكى، فأسكت عمر (أي تغاضى عن ذلك) بعدما سأل عن ذلك فقالوا: اشتراها بكف من نوى"(٦٨).

وذكر أيضًا أنه "كان لعبيد الله بن عمر بهمة(٦٩) فجعلت في التنور فخرج على عمر ريحها فقال: ما أظن أحدًا من أهلها اجترأ علي، وهو في نفر من أصحابه، فقال: (لأسلم مولاه) اذهب فانظر، فذهب أسلم فوجدها في التنور فخاف عبيد الله خوفًا شديدًا وطلب من أسلم أن يستره، غير أن أسلم قال له: قد عرف حين أرسلني أن لن أكذبه، فما كان أمام عبيد الله بن عمر إلا أن أخرج اللحم ووضعه بين يدي عمر واعتذر إليه أن تكون كانت بعلمه"(٧٠).

التوجه إلى الله بالدعاء

بذل الخليفة عمر بن الخطاب كل ما في وسعه لتخفيف وطأة المجاعة على رعيته، فجلب الطعام من بعض الأمصار الإسلامية وكان يشرف بنفسه على تقسيمه وإطعام المسلمين منه، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، فكان يشاركهم طعامهم وحرم على نفسه كل ما لذ وطاب من الطعام. ووسط هذه الهموم التي كان عمر يحملها بين جنباته، كان يتوجه بالدعاء إلى الله ألا يجعل هلاك أمة محمد على يديه(٧١)، فكان يكثر من الصلاة في جوف الليل ثم يقول: "اللهم لا تهلكنا بالسنين وارفع عنا البلاء"(٧٢). كما طلب عمر من المسلمين أن يشاركوه في الدعاء إلى الله فخطب فيهم قائلاً: "أيها الناس، اتقوا الله في أنفسكم وفيما غاب عن الناس من أمركم، فقد ابتليت بكم، وابتليتم بي فما أدري السخطة علي دونكم أو عليكم دوني أو قد عمتني وعمتكم، فهلموا فلندع الله يصلح قلوبنا وأن يرحمنا وأن يرفع عنا المحل"(٧٣).

---

(٦٨) المصدر السابق، ص ٣١٥؛ ابن الجوزي: المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٦٩) البهْمةْ: الصغير من أولاد الغنم والضأن والمعز والبقر من الوحش وغيرها، الذكر والأنثى في ذلك سواء، وقيل: هو بهمة إذا شب، والجمع بَهْمٌ وبَهَمٌ وبهام، وبهاماتٌ جمع الجمع (راجع ابن منظور: المصدر نفسه، المجلد ١٢، ص ٥٦).

(٧٠) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ص ٣١٣-٣١٤.

(٧١) المصدر السابق، ص ٣١٢.

(٧٢) المصدر السابق، ص ٣١٩.

(٧٣) المصدر السابق، ص ٣٢٢.

ولعمري فإن هذا لمنتهى العدل والتواضع لله من جانب عمر رضي الله تعالى عنه.

وكان الخليفة عمر أول من دعا المسلمين في كل الولايات الإسلامية أن يؤدوا صلاة الاستسقاء في ساعة محددة ويوم معين، فيقال إنه لما أجمع على أن يستسقي ويخرج بالناس كتب إلى عماله أن يخرجوا يوم كذا وكذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المحل، وخرج هو لذلك اليوم عليه برد رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى المصلى فخطب الناس وتضرع وجعل الناس يدعون معه، وكان قد اصطحب معه العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، فأخذ يد العباس ورفعها ثم قال: اللهم إنا نتشفع إليك بعم نبيك أن تذهب عنا المحل وأن تسقينا الغيث، فلم يبرحوا حتى سقوا وأطبقت السماء عليهم أيامًا"[٧٤].

لقد بذل الخليفة عمر بن الخطاب كل ما في وسعه للقضاء على تلك المجاعة، "فأجهد في إمداد الأعراب بالإبل والقمح والزيت من الأرياف حتى محلت مما جهدها ذلك"، كما ذكر ابن الجوزي[٧٥]. غير أن الحيا جاء من الله سبحانه وتعالى، فقد ذكر ابن سعد[٧٦]، أن المسلمين كانوا زمن الرمادة لا يرون سحابًا، فلما استسقى عمر بالناس لم يمكثوا إلا أيامًا حتى رأوا السحاب وجاءتهم الرحمة من السماء، ولعل في هذا درسًا لنا جميعًا أن نتجنب ما يجلب علينا غضب الله فتنزل بنا الكوارث، وأنه إذا حلت بنا كارثة، فإننا مهما فعلنا من تدابير فلابد لنا من مراجعة أنفسنا لإصلاح ذات بيننا ثم الرجوع إلى الله، فلا أحد سواه يستطع أن يكشف الضر عنا.

انتهاء المجاعة وإجراءات عمر لتخفيف آثارها

كان نزول المطر بشيرًا بانتهاء هذه الشدة، فلما اطمأن الخليفة عمر إلى أن المسلمين سيكونون بخير، بدأ يعمل على إرجاعهم إلى ديارهم فوكل كل قوم من هؤلاء النفر بناحيتهم يخرجونهم إلى البادية ويعطونهم قوتًا وحملانًا إلى باديتهم. وكان عمر يشرف على إخراجهم بنفسه، وكان يقول لهم: "اخرجوا من القرية إلى ما كنتم اعتدتم من البرية"[٧٧]، فجعل عمر يحمل الضعيف منهم حتى لحقوا ببلادهم.

---

(٧٤) المصدر السابق، ص ص ٣٢٠-٢١.

(٧٥) ابن الجوزي: المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٧٦) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣٢٢.

(٧٧) المصدر السابق، ص ٣١٧.

ولاشك أن الكثير منهم فقدوا مواشيهم بسبب الجفاف. وكان الخليفة عمر يدرك أن المجاعة ستترك آثارها على المسلمين، ولذلك نجده ينظر بعين الاعتبار لهذه الظروف القاسية فيتخذ بعض القرارات التي من شأنها أن تخفف العبء على المسلمين، فكان أول ما فعله أنه أخر جباية الصدقة عام الرمادة[٧٨] فلم يبعث السعاة، فلما كان قابل ورفع الله ذلك الجدب أمرهم أن يخرجوا فأخذوا عقالين، فأمرهم أن يقسموا عقالاً ويقدموا عليه بعقال[٧٩]، وكان عمر يبعث السعاة فيأمرهم أن يأتوا الناس حيث كانوا[٨٠]، حتى لا يكبدهم المشاق، ومن هنا يتضح لنا أن الخليفة عمر لم يكتف فقط بتأخير جمع الزكاة في فترة المجاعة، بل إن هذه الزكاة المتأخرة ردت مرة أخرى إلى من جمعت منهم وقسمت بين فقرائهم تعويضًا لهم عما فقدوا في فترة الجفاف.

اتخذ الخليفة عمر أيضًا إجراء آخر مُهِمًّا يتماشى مع عدالة الإسلام وسماحته، وذلك إيقافه للعمل بحد السرقة في فترة المجاعة، فقد روى عنه أنه قال: لا قطع في عام سنةٍ[٨١]. وقد فسر ابن قدامة ذلك بقوله: إن المحتاج إذا سرق ما يأكله فلا قطع عليه لأنه كالمضطر[٨٢]، أما السرخسي فقال إن المراد بذلك هو زمان القحط لأن الضرورة تبيح التناول من مال الغير بقدر الحاجة فيمنع ذلك وجوب القطع[٨٣]. وبنى الخليفة عمر قراره ذلك على قول الرسول ﷺ "ادرؤا الحدود بالشبهات"[٨٤].

كذلك من الإجراءات التي اتخذها الخليفة عمر لتخفيف آثار المجاعة وضمان عدم تكرارها في المستقبل هو لجوؤه إلى عمال الأمصار لإرسال إمدادات من الطعام إلى بلاد العرب. وكنا قد تطرقنا لهذه المسألة في بداية هذا البحث وتوصلنا إلى نتيجة، وهي أن معظم هذا الطعام جاء في الفترة التي أعقبت عام الرمادة، أي بعد سنة ١٨هـ، وسنذكر فيما بعد ما يثبت قولنا هذا. وقبل

(٧٨) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣٢٣؛ أبو عبيد: "كتاب الأموال"، ص ٥١٨.

(٧٩) العِقَالْ: صدقة عام، يقال: أخذ منهم عقال هذا العام إذا أخذت منهم صدقته... وقد جاء في حديث عمر بن الخطاب أنه أخر الصدقة عام الرمادة فلما أحيا الناس بعث عامله فقال: اعقل عنهم عقالين، فاقسم فيهم عقالاً وأتني بالآخر، يريد صدقة عامين. وقد ذكر أيضًا أن العقال هو الحبل الذي كان يعقل به الفريضة التي كانت تؤخذ في الصدقة إذا قبضها المصدق، (راجع ابن منظور: المصدر نفسه، المجلد ١١، ص ٤٦٤).

(٨٠) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣٢٣.

(٨١) انظر السيد سابق: "فقه السنة"، ج٢، ص ص ٤٩٢-٤٩٣؛ مصطفى الزرقاء: "المدخل الفقهي العام"، ص ص ١٦٠-١٦١؛ الرحيلي: "فقه عمر بن الخطاب"، ص ص ٢٩٠-٢٩١.

(٨٢) ابن قدامة: "المغني"، المجلد ٩، ص ١٣٦.

(٨٣) السرخسي: "المبسوط"، المجلد ٩، ص ١٤٠.

(٨٤) راجع الرحيلي: المرجع نفسه، ص ٢٩١.

ذلك نتحدث عن مكاتبات الخليفة عمر مع عماله في هذا الشأن وما أرسله هؤلاء العمال من طعام وإمدادات. فقد كتب الخليفة عمر إلى عمرو بن العاص، عامله على مصر ما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي، سلام عليك، أما بعد: أفتراني هالكًا ومن قِبلَي وتعيش أنت ومن قبلك؟ فياغوثاه ثلاثًا..، فكتب إليه عمرو بن العاص "بسم الله الرحمن الرحيم: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: أتاك الغوث، فَلَبِّثْ لبثْ[٨٥]، لأبعثن إليك بعيرٍ أولها عندك وآخرها عندي، قال (الراوي) فلما قدم أول الطعام كلم عمر بن الخطاب الزبير بن العوام فقال له: تعترض للعير فتمليها إلى أهل البادية فتقسمها بينهم..."[٨٦].

وفي رواية أخرى أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص أن ابعث إلينا بالطعام على الإبل وابعث في البحر، فبعث عمرو على الإبل فلُقيت الإبل بأفواه الشام فعدل بها رسله يمينًا وشمالاً ينحرون الجزر ويطعمون الدقيق ويكسون العباء، وبعث رجالاً إلى الجار وإلى ساحل البحر، إلى الطعام الذي بعث به عمرو من مصر في البحر فحمل إلى أهل تهامة يطعمونه[٨٧]، ويقال إن عمرو بن العاص بعث إليه في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والودك[٨٨] وبعث إليه في البر بألف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه بخمسة آلاف كساء[٨٩].

ويرتبط بهذه الإمدادات من الطعام التي أحضرت من مصر عن طريق البحر إنجاز آخر مهم، وهو حفر خليج يوصل بين النيل والبحر الأحمر وهو المعروف باسم "خليج أمير المؤمنين" ويقال إن الخليفة عمر بن الخطاب أمر عمرو بن العاص، عامله على مصر، بالعمل على حفر هذا الخليج، فقام بحفره ليصبح من أعظم الإنجازات الاقتصادية التي تمت في عهد الخليفة عمر[٩٠].

كتب الخليفة عمر أيضًا إلى معاوية بن أبي سفيان، عامله على الشام وإلى سعد بن أبي وقاص، عامله على العراق، أن يبعثا إليه بالطعام فبعث من يتلقى إمدادات معاوية بأفواه الشام

---

(٨٥) اللبث واللباث: المكث (راجع ابن منظور: المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٨٢) ولعله يقصد هنا: "انتظر وترقب".
(٨٦) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣١٠.
(٨٧) المصدر السابق، ص ٣١١.
(٨٨) الوَدَكُ: هو الدَسَمُ، وقيل دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه (ابن منظور: المصدر نفسه، المجلد ١٠، ص ٥٠٩).
(٨٩) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣١٥.
(٩٠) نظرًا لأهمية هذا الموضوع، ولما له من خلفية تاريخية يطول شرحها، فقد رأينا أن نفرد له ملحقًا خاصًا في نهاية هذا البحث.

فيوزعونها، وكذلك فعل بطعام العراق[٩١]، أرسل من تلقاه بأفواه العراق ووزعه في البوادي. ويقال إن معاوية بعث من الشام بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه بثلاثة آلاف عباءة. أما والي الكوفة فقد بعث بألفي بعير تحمل الدقيق[٩٢].

يتضح لنا مما سبق أن هذا الطعام لم يرسل إلى المدينة، بل كان الخليفة عمر يبعث من يتلقاه بأفواه الشام وأفواه العراق، فيميلون به يمينًا وشمالاً يقسمونه على المسلمين في البادية، وذلك لأن عمر كان قد أرجع الذين تجمعوا حول المدينة من الأعراب بسبب الجفاف إلى باديتهم بعد نزول الأمطار. وفي هذا تأكيد لما سبق أن ذكرناه من أن هذه الإمدادات من الطعام، وبصفة خاصة من الشام ومصر، جاءت بعد انتهاء عام الرمادة ونهاية فترة الجفاف، أي بعد سنة ١٨هـ من الشام وبعد سنة ٢٠هـ من مصر. غير أن هذا لا يعني، بأية حال من الأحوال، أن هذه الإمدادات جاءت متأخرة ولم تجيء في وقت الحاجة إليها، فقد كانت في الواقع إجراء احتياطيًا سليمًا من قبل الخليفة عمر لأنه كان يعرف أن الجدب الذي أحدثته سنة الجفاف ستظل آثاره باقية بعض الوقت.

والحقيقة أن نظرة الخليفة عمر كانت أبعد من ذلك، فمن جهة نجد أنه وضع نظامًا ثابتًا تحمل بمقتضاه الإمدادات العينية من طعام وغيره إلى بلاد العرب، وقد رأينا من قبل كيف أن هذا النظام ظل معمولاً به حتى عهد الخليفة العباسي المنصور. أما من الناحية الأخرى، فإن الخليفة عمر قام بوضع ديوان العطاء أو ديوان الجند الذي يعتبر أعظم التنظيمات المالية للدولة الإسلامية، وقد كان وضع الديوان في محرم سنة ٢٠هـ الأمر الذي يدعونا للاعتقاد بأن نشأته ارتبطت بتجربة عام الرمادة والمجاعة التي عاشتها الدولة الإسلامية في سنة ١٨هـ[٩٣].

(٩١) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣١١.

(٩٢) المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٩٣) ليس هذا مجال الحديث عن ديوان الجند، الذي وضعه الخليفة عمر، حديثًا مفصلاً (هناك رسالة دكتوراه باللغة الألمانية تبحث في هذا الموضوع أعدها (Puin) وهي بعنوان: "Der Diwan Von Umar b. Al-Hattab" وهنا تجدر الإشارة فقط إلى أن هناك ما يعرف بديوان المدينة؛ وهو الذي كانت تصرف بمقتضاه الأموال لأهالي المدينة حسب القرابة من الرسول ﷺ، والسابقة إلى الإسلام، والاشتراك في غزوة بدر وأحد والخندق، وغير ذلك من الأسس التي اعتمد عليها الخليفة عمر في وضع الديوان. كما أن هناك ديوان الجند العام، والذي بمقتضاه كان يصرف العطاء للمجاهدين.

الخلاصة

إن الكوارث التي تصيب البشر في حياتهم تعتبر شيئًا طبيعيًا ولا يد لأحد فيها، وإنما هي امتحان من الله لعباده، ولكن العبرة تكون في تصرفنا وكيفية مواجهتنا لهذه الكوارث.

وقد رأينا في هذا البحث كيف أن الخليفة عمر بن الخطاب تصدى للمجاعة التي أصابت المسلمين في عهده بكل ما أوتي من قوة وبذل كل ما في وسعه للتخفيف من وطأتها، بل إنه أذاق نفسه مرارة الجوع حتى يكون إحساسه بما تعانيه رعيته إحساسًا صادقًا، فأعطانا بذلك مثلاً رائعًا لما يجب أن يكون عليه الراعي، فليتنا نقتدي بهذه الشخصية العظيمة في حل مشكلاتنا المماثلة.

إن الاستعانة بأمصار الدولة الإسلامية لمد إخوانهم المتضررين من المجاعة بما يحتاجونه من طعام ولبس، لتعبر تعبيرًا صادقًا عن مبادئ الإسلام في أن يتعاون المسلمون فيما بينهم، الأمر الذي يؤكد أواصر الإخاء الإسلامي وأن المسلمين بإمكانهم مساعدة بعضهم بعضًا ولا حاجة لهم بمساعدات أعداء الإسلام.

لابد لنا من التسليم بأن ما يصيبنا من كوارث فمن الله، إما لخلل في أنفسنا وإما لخلل في مجتمعنا وإما ابتلاءً من الله تعالى لنا. فإذا أصلحنا من أنفسنا فإن الله كفيل بأن يرفع عنا القحط والمحل والكوارث. ورغم إيمان الخليفة عمر بأن الذي أصابهم فمن الله، وأن الله سيرفع عنهم ذلك، إلا أنه استفاد من تجربة عام الرمادة فقام بتأمين إمدادات الطعام للجهات التي تقل فيها الأمطار والزراعة.

وإذا كان التفكير في وضع ديوان الجند، الذي يعتبر من أعظم التنظيمات المالية التي أنجزها الخليفة عمر بن الخطاب، قد جاء نتيجة للأموال التي أحضرها العامل أبو هريرة من البحرين[٩٤]، إلا أنه مما لاشك فيه أن تجربة عام المجاعة جعلت الخليفة عمر يمضي قدمًا في إكمال عملية التنظيمات المالية، وقد روى عن عمر قوله: لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم، ألف لسفره وألف لسلاحه وألف يخلفها لأهله وألف لفرسه وبغله[٩٥].

---

(٩٤) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣٠٠؛ أبو يوسف: المصدر نفسه، ص ١٠٤. البلاذري: المصدر نفسه، القسم ٣، ص ص ٥٤٤-٥٥٥.

(٩٥) ابن سعد: المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٢٩٧؛ وفي رواية أخرى (ابن سعد: ص ٣٠٢) جاء: لئن عشت حتى يكثر المال لأجعلن عطاء الرجل المسلم ثلاثة آلاف: ألف لكراعة وسلاحه، وألف نفقة له، وألف نفقة لأهله.

ملحق (أ)

حفر خليج أمير المؤمنين

اعتمدنا في هذا الملحق على مصدرين اثنين، الأول منهما كتاب ابن عبد الحكم (فتوح مصر والمغرب، ص ص ٢١٨-٢٢٢) والذي أورد فيه عدة روايات عن مكاتبات ومشاورات الخليفة عمر بن الخطاب مع عمرو بن العاص، عامله على مصر، بشأن حفر خليج يوصل بين النيل والبحر الأحمر، وقد رأينا أن نورد النص بأكمله كما جاء في كتاب ابن عبد الحكم.

أما المصدر الثاني فهو ما كتبه محمد حمدي المناوي في كتابه "نهر النيل في المكتبة العربية" (القاهرة ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م ص ص١٢٧-١٣١) والذي أعطى فيه نبذة تاريخية عن هذا الخليج. ونبدأ الآن بما كتبه ابن عبد الحكم: يقول ابن عبد الحكم:

حدثنا عبد الله بن صالح أو غيره عن الليث بن سعد، أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر بن الخطاب في سنة الرمادة، فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر:

(من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي سلام، أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي فياغوثاه، ثم ياغوثاه) يردد قوله ثلاثًا...

فكتب إليه عمرو بن العاص:

(أما بعد، فيا لبيك ثم يا لبيك، قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي، والسلام عليك ورحمة الله).

فبعث إليه بعير عظيمة، فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر، يتبع بعضها بعضًا.

فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس، ودفع إلى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعيرًا بما عليه من الطعام، وبعث عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص يقسمونها على الناس، فدفعوها إلى أهل كل بيت بعيرًا بما عليه من الطعام، أن يأكلوا وينحروا البعير فيأكلوا لحمه، ويأتدموا شحمه ويحتذوا جلده. وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام لما أرادوا من لحاف أو غيره، فوسع الله بذلك على الناس.

فلما رأى ذلك عمر حمد الله، وكتب إلى عمرو بن العاص، يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه، فقدموا عليه، فقال عمر:

(يا عمرو، إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد ألقى في روعي، لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر، وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين، أن أحفر خليجًا من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نريد، فانطلق أنت وأصحابك، فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم).

فانطلق عمرو، فأخبر بذلك من كان معه من أهل مصر، فثقل ذلك عليهم، وقالوا: نتخوف أن يدخل في هذا ضرر على مصر، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين، وتقول له، إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون، ولا نجد إليه سبيلاً، فرجع عمرو بذلك إلى عمر.

فضحك عمر حين رآه وقال:

(والذي نفسي بيده، لكأني أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرت به من حفر الخليج، فثقل ذلك عليهم، وقالوا، يدخل في هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن تعظم على أمير المؤمنين، وتقول له، إن هذا الأمر لا يعتدل ولا يكون، ولا نجد إليه سبيلاً.

فعجب عمرو من قول عمر، وقال: صدقت والله أمير المؤمنين، لقد كان الأمر على ما ذكرت.

فقال له عمر: انطلق يا عمرو بعزيمة مني حتى تجد في ذلك، ولا يأتي عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله.

فانصرف عمرو، وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد. ثم احتفر الخليج الذي في حاشية الفسطاط الذي يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، فنفع الله بذلك أهل الحرمين، وسمي خليج أمير المؤمنين، ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز، ثم ضيعته الولاة بعد ذلك، فترك وغلب عليه الرمل، فانقطع، فصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية طحا القلزم.

قال: ويقال إن عمر بن الخطاب قال لعمرو بن العاص حين قدم عليه، كما حدثنا أخي عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة عن محمد ابن عبد الرحمن قال –حسبته عن عروة– (يا عمرو إن العرب قد تشاءمت بي وكادت أن تهلك على رجلي، وقد عرفت الذي أصابها، وليس جند من الأجناد أرجى عندي أن يغيث الله بهم أهل الحجاز من جندك فإن استطعت أن تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله).

فقال عمرو: ما شئت يا أمير المؤمنين، قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد، وتركته التجار، فإن شئت أن نحفره. فننشئ فيه سفنًا، يحمل فيه الطعام إلى الحجاز فعلته.

فقال له عمر: نعم، فافعل.

فلما خرج عمرو من عند عمر بن الخطاب ذكر ذلك لرؤساء أهل أرضه من قبط مصر فقالوا له: ماذا جئت به؟ أصلح الله الأمير، تنطلق فتخرج طعام أرضك وخصبها إلى الحجاز، وتخرب هذه؟ فإن استطعت فاستثقل ذلك.

فلما ودع عمر بن الخطاب قال له يا عمرو: انظر إلى ذلك الخليج فلا تنسين حفره. فقال له يا أمير المؤمنين، إنه قد انسد وتدخل فيه نفقات عظام. فقال له عمر: أما والذي نفسي بيده، إني لأظنك حين خرجت من عندي حدثت بذلك أهل أرضك، فعظموه عليك، وكرهوا ذلك، أعزم عليك إلا ما حفرته وجعلت فيه سفنًا. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، إنه متى ما يجد أهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا إلى الجهاد.

قال: فإني سأجعل من ذلك أمرًا، لا يحمل في هذا البحر إلا رزق أهل المدينة وأهل مكة. فحفره عمرو، وعالجه وجعل فيه السفن. وذكر عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن هشام ابن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه، إنما دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من قبط مصر. حدثنا أبي عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن أبيه، أن رجلاً أتى إلى عمرو بن العاص، من قبط مصر، فقال: أرأيت إن دللتك على مكان تجري فيه السفن حتى تنتهي إلى مكة والمدينة أتضع عني الجزية، وعن أهل بيتي.

قال: نعم.

فكتب إلى عمر، فكتب إليه، أن أفعل.

(١) خلاصة رواية ابن عبد الحكم

مما ذكره ابن عبد الحكم نستطيع أن نستخلص الآتي:

١- إن حفر الخليج، أو بالأحرى إعادة حفره، ارتبط بالمجاعة التي اجتاحت بلاد العرب في عام الرمادة، ولاشك أن هذا تم بعد أن استقرت أقدام المسلمين في مصر، أي بعد سنة ٢٠هـ (راجع خلاصة بحث المناوي في هذا الملحق).

٢- إن إرسال إمدادات الطعام من مصر سبق التفكير في إعادة حفر الخليج، لأن هذا الطعام هو الذي شجع الخليفة عمر للتفكير في حفر الخليج، فجاءت المبادرة منه.

٣- ترجع إحدى الروايات فكرة حفر الخليج إلى عمرو بن العاص الذي اقترح على عمر ذلك فأعطاه موافقته.

٤- في كلتا الروايتين يتضح لنا عدم موافقة أهل مصر على إعادة حفر الخليج حتى لا تذهب خيرات بلادهم إلى بلاد أخرى، ولكن عمرو بن العاص وجد من أهل البلاد من دله على مكان الخليج القديم فأعاد حفره وجرت فيه السفن، وهذه حقيقة تاريخية تؤكد حدوث هذا الإنجاز الكبير في عهد الخليفة عمر رغم اختلاف الروايات حول الكيفية التي تم بها.

(٢) خلاصة بحث المناوي

بعد أن استتب الأمر لعمرو بن العاص في مصر قام بعمل يعد من أروع أعماله الإدارية، ذلك حفره خليجًا يربط بين النيل والبحر الأحمر. ولقد أصبح هذا الخليج مرتبطًا بتاريخ الفسطاط والقاهرة بوجه خاص أو بتاريخ مصر بوجه عام حتى ردم منذ عهد غير بعيد.

وهو خليج قديم، كان يعرف باسم قناة تراجان تخرج من النيل شمال بابليون، وتمر بعين شمس ثم تسير في وادي الطيلات، وأن خط سيرها هو مجرى قناة الإسماعيلية الآن، من العباسية حتى الإسماعيلية، ثم يتجه جنوبًا في مجرى قناة السويس الحالية من بحيرة التمساح مخترقًا البحيرات المرة حتى يصب في خليج السويس عند السويس.

ولكن هذه القناة أقدم من زمن تراجان بكثير، وإن نسبت إليه، لأنه أعاد تطهيرها ونقل مخرجها إلى بابليون. فقد ذكرها هيرودوت وديودور الصقلي واسترابون باسم قناة البحر الأحمر، وتخرج من الفرع البيلوزي إلى أرسنوي (السويس)، وأن نيخوبن بسماتيك (نكاو الثاني من الأسرة ٢٦ عام ٦٠٩-٥٩٣ ق. م) هو الذي بدأ حفرها، ولكنه سرعان ما تركه لظهور نبوءة تقول بأن الذي سيستفيد منها أجنبي. وباشر العمل بعده في حفرها دارًا الأول الذي لم يتمها هو الآخر لاقتناعه برأي خاطيء بأن مستوى البحر الأحمر أعلى من مستوى أرض مصر. ثم استأنف البطالمة الحفر فأتمها بطليموس الثاني وسميت القناة باسمه.

وقد جدد حفر هذه القناة مرات بعد ذلك، لعل أهمها التجديد الذي حدث في عهد تراجان ونقله مخرجها من بوباسطيس (تل بسطة قرب الزقازيق) إلى بابليون حتى سميت باسمه. وكما فعل تراجان فعل عمرو بن العاص بعد ذلك بعدة قرون، فقد أعاد حفر القناة وأصلحها بعد أن كان الرمل قد سدها حتى قيل إن عمرًا احتاج إلى من يدله على موضعها من القبط فأجازه برفع الجزية عنه. ولكن السرعة التي تم بها الحفر تدل على أن أجزاء منها كانت ظاهرة.

أما تاريخ حفره فيجمع الكتاب العرب على ما ذكره الكندي من أن عمرًا بدأ الحفر سنة ٢٣هـ (٦٤٣-٦٤٤م) وفرغ منه في ستة أشهر وجرت السفن في الخليج ووصلت إلى الحجاز في الشهر السابع. وظلت التجارة والأقوات تحمل إلى الحجاز عن طريق هذا الخليج حتى بعد زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) ثم أهملته الولاة وطغت عليه الرمال وصار نهايته بحيرة التمساح. وقيل إن الخليفة أبا جعفر المنصور (١٣٧-١٥٨هـ) هو الذي أمر بردم هذا الخليج ليقطع عن الحجاز الطعام، وذلك عندما ثار عليه بها محمد بن عبد الله أحد أحفاد علي بن أبي طالب.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: كتب باللغة العربية

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: "**تاريخ عمر بن الخطاب**"، قدم له وعلق عليه أسامة عبد الكريم الرفاعي، دمشق (١٣٩٤هـ).

ابن حنبل، أحمد: "**المسند**"، ٦ مجلدات، بيروت (١٩٦٩م).

ابن سعد، محمد: "**كتاب الطبقات الكبرى**" ٨ مجلدات، بيروت (بدون تاريخ).

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله "**فتوح مصر والمغرب**"، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة (١٩٦١).

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله: "**تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها**"، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجلدة الأولى، دمشق ١٣٧١هـ/١٩٥١م.

ابن قدامة، موفق الدين أبو عبد الله بن أحمد بن محمود: "**المغني**"، عشرة أجزاء، تحقيق محمود عبد الوهاب فايد وعبد القادر أحمد عطا، القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: "**سنن ابن ماجه**"، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مجلدان، القاهرة (١٩٥٢-١٩٥٣).

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: "**لسان العرب**"، ١٥ جزءًا، بيروت ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

ابن هشام، محمد بن عبد الملك: "**السيرة النبوية**"، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ٤ أجزاء في مجلدين، القاهرة (بدون تاريخ).

أبو داود، سليمان بن الأشعث: "**سنن أبي داود**"، تحقيق محمد محيي الدين، ٤ مجلدات، القاهرة (١٩٥٠).

أبو عبيد، القاسم بن سلام: "**كتاب الأموال**"، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس، الطبعة الثانية، دار الفكر، القاهرة (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم: "**كتاب الخراج**"، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا، القاهرة (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: "**الجامع الصحيح**"، ٩ مجلدات، القاهرة (بدون تاريخ).

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز: "**معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**" أربعة أجزاء، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة (١٣٦٨هـ/١٩٤٩م).

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: "**فتوح البلدان**"، ٣ أقسام، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، القاهرة (١٩٥٦).

خليفة بن خياط: "**تاريخ خليفة بن خياط**"، تحقيق إكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية، دمشق/بيروت (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).

الرحيلي، رويعي بن راجح: "**فقه عمر بن الخطاب، موازنًا بفقه أشهر المجتهدين**"، الجزء الأول في الحدود وملابساتها، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى.

الزبيدي، محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني: "**تاج العروس من جواهر القاموس**"، الطبعة الأولى، عشرة أجزاء، المطبعة الخيرية بمصر، (١٣٠٦هـ).

الزرقاء، مصطفى أحمد: "**الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد**"، **الجزء الأول**: "**المدخل الفقهي العام**"، الطبعة التاسعة، دمشق (١٩٦٧-١٩٦٨م).

سابق، السيد: "**فقه السنة**"، الطبعة الثالثة، ثلاثة أجزاء، بيروت (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).

السرخسي، شمس الدين: "**كتاب المبسوط**"، ط١، ثلاثون جزءًا في خمسة عشر مجلدًا، مطبعة السعادة، مصر (١٣٢٤هـ).

الطبري، محمد بن جرير: "**تاريخ الرسل والملوك**"، ١٠ أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة (بدون تاريخ).

الفيروز أبادي، مجد الدين: "**القاموس المحيط**"، الطبعة الثالثة، أربعة أجزاء، المطبعة المصرية (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م).

مالك بن أنس: "**الموطأ**"، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة (١٩٥١).

المناوي، محمد حمدي: "**نهر النيل في المكتبة العربية**"، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة (١٣٨٦هـ-١٩٦٦م).

الواقدي، محمد بن عمر: "**فتوح الشام**"، الطبعة الرابعة، القاهرة (١٣٨٥هـ/١٩٦٦م).

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله: "**معجم البلدان**"، خمسة أجزاء، بيروت (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

يحيى بن آدم: "**كتاب الخراج**"، القاهرة (١٣٨٤هـ).

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح: "**تاريخ اليعقوبي**"، مجلدان، بيروت (١٣٧٩هـ/١٩٦٠).

ثانيًا: كتب بلغات أوربية

Butler, Alfred J., *The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Dominion*, Second edition, Oxford (1978)

Dols, Michael W., *The Black Death in the Middle East*, New Jersey (1977).

Encyclopedia of Islam, Vol. **IV**, Leiden (1934).

Puin, Gerd Rudiger, *Der Diwan von' Umar. b. al-Hattab*: Ein Beitrag Zur fruhislamischen Verwaltungs geschichte, (Diss), Bonn (1970).

Caliph Umar's Handling of The Problem of Hunger During The Famine Year

SALAH AL TIJANI HAMOUDI
Assistant Professor, Faculty of Arts,
King Abdu Aziz University, Jeddah, Saudi Arabia

ABSTRACT. The paper reviews the methods used by guided Caliph Umar Ibn al-Khattab (13-23 A.H.) to face the famine of year 18 A.H. when drought struck Arabia. The problem was further complicated by the plague, which struck most of Syria during 17-18 A.H.

Umar acted decisively and wisely, setting exemplary precedents to any responsible Muslim ruler. He mobilized food supplies from Egypt and Iraq, personally supervised their distribution, refrained personally from eating good food or eating at home. He delayed collection of zakat, and suspended the statutory punishment of theft (hadd) because of the like lihood that the thief is in dire need. He joined the people in prayer to Allah to alleviate the drought. After the famine, Umar ordered his Governor in Egypt. Amr Ibn AI-Aass to dig a canal connecting the Nile to the Red Sea to ensure regular supplies of food from Egypt to Arabia.